الحلقة السادسة

عبدالله البردوني

تقول قصة حياة الشاعر اليمني الكفيف عبدالله البردوني: أشهر شعراء اليمن وأعظمهم في القرن العشرين.. بين من سبقوه كالزبيري ومن لحقوه كالمقالح، إنه ولد في قرية «بَرَدُون» من قرى محافظة ذمار اليمنية في عام ١٩٢٩م، وأنه أصيب بالجدري وهو في الخامسة من عمره.. فشوه وجهه وأفقده بصره منذ ذلك الحين.. وإلى الأبد، ومع ذلك.. فقد تردد على كتّاب قريته.. حتى حفظ القرآن، ثم انتقل إلى عاصمة محافظته «ذمار».. حيث التحق بالمدرسة ليتم حفظ القرآن وتجويده على القراءات السبع. وأنه انتقل بعد ذلك إلى «صنعاء».. حيث درس على يدي العلامة أحمد الكحلاني والعلامة أحمد معياد.. علوم الدين واللغة والبلاغة، ليلتحق بمدرسة دار العلوم الموازية بصورة ما.. لـ «دار العلوم» القاهرية المعروفة آنذاك.. فيحصل منها على إجازة في العلوم الشرعية واللغة، مكنته من أن يصبح بعدها «مدرساً» للأدب العربي في ذات الدار.

ورغم أنه قال الشعر.. مبكراً فاستلفت إليه الأنظار.. بل وسُجن بسببه تسعة أشهر قبل أن يصدر له ديوانه الأول: «من أرض

بلقيس» وهو في الثانية والثلاثين من عمره.. إلا أن كل تلك السنين على طولها وطول معاناته فيها بسبب فقره وعجزه، وتحديه لهما.. الذي أخرجه بداية من دائرة أن يكون إماماً في أحد المساجد أو مقرئاً للقرآن في الزوايا والمقابر.. وجعله نهاية شاعراً تعرفه مدن اليمن وقراها، وكاتباً وأديباً يدير إذاعة صنعاء، إنما تمثل من وجهة نظري.. الولادة الأولى له، أما الولادة الثانية له.. وهي الأجل والأعظم والأهم فسيحين موعدها. في أواخر أيام وليالي خريف عام ١٩٧٢م على وجه التحديد.

ففي إحدى تلك الليالي الباردة من ليالي ديسمبر.. وفي قاعة الاحتفالات الكبرى بمدينة «الموصل» العراقية التي تم إنشاؤها من أجل الاحتفال بألفية الشاعر العربي الكبير «أبو تمام»، الذي تضم المدينة ضريحه، والذي لا أدري ما فعل بها جيش الاحتلال الأمريكي البريطاني هذه الأيام.. وصل الشاعر اليمني عبدالله البردوني الذي لم يكن يعرفه آنذاك غير الجهة المنظمة للحفل، ونفر قليل من أولئك الأدباء والشعراء والمثقفين الذين تجمعوا بالمئات في تلك القاعة لمتابعة الاحتفالية والاستماع إلى قصائد الشعراء الذين دعوا للمشاركة فيها.. ففاجأ الجميع برثاثة هيئته واتساخ ملابسه وقبح منظره إذ إنه لم يضع حتى نظارة سوداء على عينيه ليخفي بها بشاعتهما وقبحهما.. كما يفعل بقية المكفوفين، ولكن كان من حسن حظه على الجانب الآخر.. أن الذين سبقوه في اعتلاء منصة الإلقاء قدموا «نظماً» بارداً و«شعراً» سقيماً لا يملأ

القلوب ولا يعني القول «مما جعل القاعة تغط في نومها» كما قال الناقد والمؤرخ العراقي الدكتور سيار الجميل، إذ لم يقدموا ذلك الشعر الذي يليق بصاحب رائعة: «السيف أصدق أنباء من الكتب».. وبـ «ألفيته» التي كانت تنقل حية على الهواء: إذاعياً وتلفزيونياً.. إلى أن دعا مقدم الحفل الأستاذ البردوني للصعود إلى المنصة.. ليواجه الجميع بمعطفه البالي ووجهه المجدور وعينيه المفقوعتين ولينشده ارتجالاً دون ورقة أو كتاب.. قائلاً:

(ماذا جرى.. يا أبا تمام تسألني؟
عفواَ سأروي..ولا تسأل..ما السببُ؟
يَدمي السؤالُ حياءً حين نسأله..
كيف احتفت بالعدي (حيفا) أو النقبُ
من ذا يلبي؟ أما إصرار معتصم
كلا وأخزى من (الأفشين) ما صُلبوا
اليوم عادت علوج «الروم» فاتحةً
وموطنُ العرب المسلوب والسَلَبُ
ماذا فعلنا؟ غضبنا كالرجال ولم
نصدق.. وقد صَدَقَ التنجيمُ والكتبُ
فأطفأت شهب «الميراج» أنجمَنَا
وشَمْسَنَا.. وتحدت نارَها الخطبُ
وقاتلت دوننا الأبواقُ صامدة
أما الرجال فماتوا.. ثمَّ أو هربوا

ثم أخذ يحدثه عن مدينته وفاتنته «صنعاء».. قائلاً:

حبيبٌ وافيتَ من صنعاء يحملني
نسرٌ وخلفَ ضلوعي يلهثُ العربُ
ماذا أحدث عن صنعاء يا أبتي؟
مليحةٌ عاشقاها: السلُّ والجربُ
ماتت بصندوق وضاح بلا ثمنٍ
ولم يمت في حشاها العشقُ والطربُ
كانت تراقبُ صبح البعث.. فانبعثت
في الحلم.. ثم ارتمت تغفو وترتقبُ
لكنها رغم بُخل الغيث ما بَرِحت
حبلى وفي بطنها «قحطان» أو «كرْبُ»
وفي أسى مقلتيها يغتلي «يمنٌ»
ثان كحلم الصبا.. ينأى ويقتربُ

ثم انتقل إلى الحديث عن نفسه قائلاً:

حبيبٌ تسأل عن حالي وكيف أنا؟
شبَّابةٌ في شفاه الريح تنتحبُ
كانت بلادك (زحلاً)، ظهر «ناجيةٍ»
أما بلادي فلا ظهرٌ ولا غَبَبُ

أرعيتَ كل جديب لحمَ راحلةٍ
كانت وفاء الروض ينسكبُ
ورحتُ من سفر مضنٍ إلى سفرٍ
أضنى.. لأن طريق الراحةِ التعبُ
لكن أنا راحلٌ في غير ما سفر
رَحلي دمي.. وطريقي الجمرُ والحطبُ
إذا امتطيتَ ركاباً للنوى، فأنا
في داخلي.. أمتطي ناري وأغتربُ
قبري ومأساة ميلادي على كتفي
وحولي العدم المنفوخُ والصخبُ

.. ليختتم ملحمته ومعارضته الرائعة تلك قائلاً:

«حبيب» مازال في عينيك أسئلةٌ
تبدو.. وتنسى حكاياها فتنتقبُ
وماتزال بحلقي ألف مبكيةٍ
من رهبة البوح تستحيي وتضطرب
يكفيك أن عِدانا أهدروا دمنا
ونحن من دمنا نحسو ونحتلبُ
سحائب الغزو تشوينا وتحجبُنا
يوماً ستحبلِ من إرعادنا السُّحُبُ

ألا تـرى يـا أبـا تمـام.. بـارقـنـا؟

إن السماء تُرجى حين تحتجبُ)

لقد كان ذلك اليوم.. هو يوم ميلاده الثاني، وكانت تلك القصيدة التي وقف الحاضرون جميعاً في ختامها تقديراً لها وإجلالاً لـ (صاحبها).. ليستقبلوه وهو يهبط من المنصة.. هي سطور شهادة ذلك الميلاد، فقد عَبَرت به تلك القصيدة.. الأوطان والأقطار والقارات، وقرأها عرب المشرق.. وعرب المغرب، حتى جعلت منه الشاعر العربي اليمني الأول.. على كثرة ما في اليمن من شعراء.. كما عبَّرت تلك القصيدة عن مجمل همومه وأحلامه وقضاياه التي شغلت عقله وقلبه، ودواوينه الاثنى عشر ودراساته الثمان قبل وبعد تلك القصيدة..

لقد كان همه الأول.. «عروبته» التي تساءل حولها قائلاً في ديوانه الأجمل «لعيني بلقيس»:

مـن نحـن يـا «صـرواح» يـا «ميتمُ»

مـوتـى.. ولـكـن نـدّعـي.. نـزعـمُ

نـنـجـرُّ.. لا نمضـي.. ولا ننثني

لا نـحـن أيـقـاظٌ.. ولا نـوّمُ

نـغـفـو بـلا نـوم ونـصـحـو بلا

صـحـوٍ.. فـلا نـرنُـو ولا نحـلمُ

كم تضحك الدنيا وتبكي أسًى
ونحن لا نبكي ولا نبسمُ
فلم يعد يضحكنا مضحكٌ
ولم تعد آلامنا تؤلمُ
أضاعت الأفراح ألوانها
وفي عروق الحزن جفَّ الدمُ

.. وكان همه الثاني «حريته» التي قال عنها في ديوانه العاشر «رواغ المصابيح»:

قلت يوماً أحب شعر «المعري»
بلغوا بي، أن المعري عشيقي
وبأني أزوره كل يوم
وله ورشة جوار «الغريقي»
وبأني في غرفتي أتخفّى
تحت دعوى تساعلي أو صفيقي

* * *

من أأخي؟! لو ذبت لطفاً تعالوا
: إن سُمّي مخبأ في رحيقي
لو تحولت فرخةً لتعلبوني
لو تضفدعت خبروا عن نقيقي

لو رأوني أمسي حماراً لنادوا

خبراء.. يترجمون.. نهيقي

.. وكان حبه وعشقه الأول.. والثاني.. والأخير هي «صنعاء» التي لم يغب اسمها عن لسانه في معظم دواوينه ودراساته إن لم يكن فيها جميعاً، وفي واحد منها يقول:

أشرق وهي قدامي أغرب وهي مرآتي

إليها ينتهي روحي ومنها تبتدي ذاتي

أغني وهي أنفاسي وأسكت وهي إنصاتي

وأظمأ وهي أحراقي وأحسو.. وهي كاساتي

أموت وحبها موتي وأحيا وهي مأساتي

وعندما سألته إحدى المعجبات عن عنوانه.. أجاب قائلاً:

«صنعاء» يا سلوى.. عنواني

بيتي: في مزدحم الأحزان

عملي: عزاف مبتدئٌ

يبكي أو يشدو.. للجدران

صندوق بريدي.. معروف:

برميل الحرقِ.. أو النسيانِ

كان طبيعياً أن ينال الجائزة الأولى في مهرجان «ألفية» أبي تمام.. بعد تلك القصيدة التي نافت عن الخمسين بيتاً من أروع ما قيل شعراً، لتتوالى عليه الأوسمة والجوائز بعد ذلك واحدة بعد

أخرى: من جائزة «مهرجان جرش» في عمان.. إلى جائزة «شوقي وحافظ» في القاهرة.. إلى «وسام الأدب والفنون» في عدن.. فوسام الآداب والفنون في صنعاء.. لكن أعظم جوائزه والتي لم ينل أحد مثيلاً لها من قبل كانت في ١٩٨٢م عندما أصدرت الأمم المتحدة: عملة فضية عليها صورة الشاعر والأديب عبدالله البردوني.. كمعوق تجاوز عجزه بأعلى درجات التفوق والإبداع، أما أنبل تلك الجوائز وأكثرها حميمية.. فقد كانت في ذلك الكتاب المسموع الذي أصدره «مجمع أبو ظبي الثقافي» بدولة الإمارات بعد وفاته في عام ١٩٩٩م بعنوان: «عاشق بلقيس.. وداعاً».. تخليداً لاسمه وذكراه التي لن تنمحي ولن تغيب.

ما أعجب وأعظم هؤلاء العباقرة المكفوفين من الشعراء.. من هوميروس إلى بشار.. ومن المعري إلى الحصري.. ومن الصاوي شعلان.. إلى شاعرنا اليمني العظيم: عبدالله البردوني.. الذي أحسب أنه آخر عباقرة القرن الماضي من الشعراء الذين سيعيشون أجيالاً وأجيالاً في قلوب ملايين القراء.. وعلى اتساع الزمن ومداه.